القومية والانسانية

عند " جراهام ولاس (Graham Wallas) "

بقلم محمد عبد العزيز نصر

عالج " جراهام ولاس " التنظيم الداخلي للدولة بأن ناقش الأثر المحتمل لبعض الاتجاهات العقلية الحديثة في المثل العليا للسلوك السياسي ونظم التمثيل النيابي والمناهج المتبعة لتحقيق الابداع والكفاية الفعلية عند موظفي الحكومة وأخذ بعدئذ في مناقشة أثر هذه النزعات على العلاقات بين الدول والأجناس ، فلقد لاحظ أن كل مجتمع يؤثر تأثيراً سياسياً في غيره من المجتمعات ، خاصة بعد أن قضى التلغراف والباخرة على معظم العقبات القديمة التي كانت تحد من تقدم هذا التأثير واتساع مداه . وتساءل عما اذا كان هذا الترابط بين الدول سيستمر في الشعور أو في الشكل الدستوري ، أو أن هنالك من الأسباب الدائمة ما يؤدي الى تحديد الدائرة الجغرافية أو العنصرية للتماسك السياسي الفعال ومن ثم حجم الدول وتركيبها .

وللاجابة على هذا التساؤل ، أخذ يناقش مفهوم الدولة عند الساسة ورجال الفكر في العصور القديمة والحديثة ومدى تجاوب هذا المفهوم مع الحقائق التي تكشفت في القرن العشرين ، فأرسطو وهو يكتب في ظروف العالم القديم رأى أن المجتمع الذي يتألف من مائة ألف مثله مثل المجتمع الذي يتألف من عشرة آلاف شخص لا يصلح لأن يكون دولة . وبنى حجته على الحقائق التي يمكن قياسها فيما يتصل بحواس الانسان وذاكرته . فاقليم الدولة يجب أن يكون " مرئياً ككل " بعين واحدة ، كما أن المجلس الذي يحضره جميع المواطنين البالغين يجب أن يكون قادراً على سماع صوت واحد وهو صوت الرجل العادي لا صوت " ستنتور " الخيالي في الأساطير وأن الحكام الرسميين يجب أن يكونوا قادرين على تذكر وجوه جميع أخوانهم من المواطنين وشخصياتهم . ولم يغفل أرسطو الحقيقة التي كان يعرفها

وهي أن أغلب الدول في عصره كانت تكبر بنسبة هائلة الحجم المثالي للدولة كما رسمته القاعدة التي وضعها لبناء الدولة ، وانما كان يفكر أن الملكيات المتبربرة العظيمة " دول " بالمعنى الصحيح .

ويعقب جراهام ولاس على رأي أرسطو بقوله اننا معرضون لأن ننسى أن الحقائق التي اعتمد عليها أرسطو في نظريته كانت واقعية وهامة . فتاريخ دول المدن عند اليونان وفي العصور الوسطى يبين أن وقوع بيئة كل مواطن في المجال المباشر لحواسه وذاكرته يصبح حافزا فعلا لأسمى أنواع النشاط والمشاعر الانسانية . كما أن الكهول من بين الانجليز الذين يعيشون في قرى نائية نحرتها ضواحي المدن المتناثرة أو امتدت اليها جموع السكان الصناعيين ، يشعرون بأنهم قد فقدوا الاتصال بالحقائق العميقة في الحياة حين فقدوا ما تعودوا من قدرة على معرفة وجوه جيرانهم وحقولهم وأكواخهم كل يوم من أثر الحضارة الحديثة . فمداخن المصانع العالية والأسقف العشوائية أضاعت المناظر التقليدية للريف الانجليزي الهادئ وأضاعت معه الشعور القديم الذي كان يحسه المواطنون من الكهول نحو المكان والبيت فعجزوا عن أن يستبدلوا بالوطنية التي يوحي بها شارع القرية وعالم البصر والسمع المحدود وطنية جديدة يوحي بها عالم أكبر من المعرفة والاستدلال والكتب والخرائط . وكثيراً ما يرى الواحد بعض هؤلاء الشيوخ الذين يرددون آراء أشبه بآراء " موريس " و " رسكن " في وجوب استعمال البخار والكهرباء والعودة الى الزراعة في القرية والصناعات اليدوية في المدينة أثناء العصور الوسطى وذلك ابتغاء ما تقدمه الحياة من غنى حقيقي . ولكن الحنين الى عودة القديم لا يجدي شيئاً أمام مجرى التطور الصناعي الدافق فحتى دول المدينة اليونانية والايطالية والفلمنكية قد اندثرت لأنها كانت من الصغر بدرجة لم تستطع معها أن تقف أمام جيوش المجتمعات التي كانت تكبرها وان كانت أقل منها تماسكاً ونظاماً ، مثل جيوش مقدونيا وأسبانيا ، ولا ريب في أن التقدم الصناعي غاز أشد بأساً من الغزاة المقدونيين والأسبان ، فنسبة كبيرة من رجال العمل والصناع في انجلترا يعيشون حياة غير حياة أجدادهم ، اذ يرون في أسفارهم اليومية بين مساكنهم ومراكز أعمالهم وهم يركبون الترام

أو القطار من المناظر ما يفوق مئات المرات ما كان يراه أجدادهم فى إصباحهم وامسائهم ، وما تعجز أبصارهم عن أن تدركه وذاكرتهم عن أن تعيه . فهم كما يقول مستر ولز " قد أخرجوا من أماكنهم " .

واذا لم يعد فى استطاعتنا الآن أن نستخدم مجال حواسنا كأساس لتقدير المساحة الممكنة للدولة المتمدنة ، فقد يبدو أنه لا توجد مطلقاً حقائق تستخدم فى مثل ذلك التقدير . فليس من اليسير أن نحدد مجال الاتصال الفعال الذى نستطيع أن نحققه عن طريق البخار والكهرباء أو المساحة التى يمكن أن تشملها وسائل سياسية مثل التمثيل النيابى أو النظام الاتحادى . ولقد أصبح الفرق واسعاً بين موقفنا من تصور الدولة وموقف أرسطو . اذ شبه أرسطو الدولة بالسفينة التى رأى أنه ينبغى الا تبلغ من الحجم الكبير ما يمنع تسييرها بسواعد البحارة أنفسهم . أما اليوم فالسفن قد زادت فى حجمها عما تصوره أرسطو وقد تزيد فى غد أضعافاً مضاعفة . " واذا ما افترضنا أن الدولة قد تزيد فى حجمها عن دائرة نظر الانسان الواحد ، فاننا بذلك نكون قد تركنا مقياس أرسطو الحسى جانباً ، وأصبح فى مقدورنا أن نتغلب على مجرد المشكلة الآلية فى أن نخضع الأرض جميعاً لحكومة فعالة منظمة نظام حكومة الولايات المتحدة أو الامبراطورية البريطانية . واذا ما كان قيام مثل هذه الحكومة العالمية مستحيلا ، فاستحالته لابد وأن تكون راجعة لا لحدود حواسنا وسواعدنا وانما لحدود قوى خيالنا وعطفنا "[1] .

ويؤكد جراهام ولاس هذه النظرة الى امكان قيام الحكومة العالمية بتحليله معنى الدولة الحديثة والاحتمالات التى يتضمنها ذلك المعنى فى رأيه ، ومقابلة ذلك بمفهوم الدولة عند ساسة أوروبا منذ قيام الثورة الفرنسية وما يستتبعه من تقرير خاص للعلاقات الدولية . فهو يردد نظريته فى أن "الدولة الحديثة يجب أن تقوم بالنسبة لأفكار مواطنيها ومشاعرهم لا كحقيقة من حقائق الملاحظة المباشرة وانما كذاتية من ذاتيات العقل ، أو رمز

(١) Wallace : Human Nature in Politics P. 273

الأوحد الى تصور الانسانية يقوم على تخيل الفرد أنها تتألف من عقد مرصع من الأمم المتجانسة اذ الأمم هي وحدات البشرية والمواطنون فيها ، وهي في ذلك مثل الأفراد في أنهم وحدات الأمة والمواطنون فيها . وقد أوجز ذلك الرأي في قوله « إن ميثاق البشرية لا يمكن أن يوقع بواسطة أفراد ، وانما يوقع بواسطة شعوب حرة ومتساوية تملك أسماء ، وعلماً ووعياً بوجود متميز »[1] . ولقد كان ماتزيني في هذا التصور للدور القومية في تنظيم العالم متسقاً مع بعد نظره وسعة خياله . ولكنه لم يشر مطلقاً الى القوى السياسية التي يمكن بها تحقيق هذه النتيجة ، ولم يوضح ان كان الغزو الذي قامت به ايطاليا في الحبشة فيما بعد تنفيذاً لفكرته أو مناقضاً لها ، وعلى قدر هذا السكوت عن بيان خطة التنفيذ عند ماتزيني . فقد كان بسمارك بتفكيره العملي واضحاً في رسم الخطة وضوحه في بيان الفكرة . فهو لم يفكر مثل ماتزيني في " ميثاق الانسانية " بل كان يحتج على أية صلات سياسية أو أخلاقية بين أية دولة وبين الدول أو الشعوب الأخرى التي تقوم خارج حدودها . فلقد قال " إن المبدأ السليم الوحيد الذي تقيم عليه دولة عظيمة تصرفها هو مبدأ الانانية السياسية " .

واذ قدم جراهام والاس لدراسته عن القومية والعالمية بهذا العرض التاريخي المذهبي لفكرة القومية في القرن التاسع عشر ، تهيأت له فرصة التعليق عليها من تجربة العقد الأول في القرن العشرين بعد أن تطورت مع التطور الدولي ، وظهرت آثارها في نطاق التوسع الاستعماري . وهنا يقف جراهام ولاس موقف الناقد المقدر لمآثر القومية على الوعي السياسي في أوروبا ، وفي الوقت نفسه موقف المواطن العالمي الذي يلمس مدى خطرها في نزعات التعصب والتنافس على السيادة بين الشعوب وهو بهذا يلقي ضوءاً قوياً على القومية في تطور النظرة اليها بين مؤيد لها ومنتقض عليها خاصة وقد كان التسابق الاستعماري بين دول أوروبا يهدد العالم بشبح الحرب العالمية الأولى . فالقومية لعبت دوراً عظيماً في تزكية الوعي السياسي بأوروبا

(١) Ibid P. 277

أثناء القرن التاسع عشر ولكن أوروبا لا تنفصل على حد تعبير ما تزيني بفواصل الأنهار والجبال وانما تتداخل من قرية الى قرية خاصة فى جنوب شرق أوروبا ، حيث أن أتباع ما تزيني من الوطنيين البلغاريين واليونانيين يتناحرون ويتقاتلون فى مقدونيا ليقضى كل فريق على الشعب المتنافس محاولا بذلك تحقيق العناية الإلهية كما يبينها موقع جبال البلقان ، ويعتقد جراهام ولاس أن ماتزيني نفسه لو امتد به الأجل وعاش حتى أول القرن العشرين لكشف المغالطة التى تقوم عليها الدولة القومية من اشتراط اشتمال الدولة الواحدة على شعب واحد . ولنذهب الى أن وجوب اشتمال بعض دول أوروبا على سكان ينتمون الى أنواع قومية مختلفة اختلافاً عظيما ، هو رفض الأخذ بسياسة بسمارك الصناعية فى فرض الاندماج القومى بالعنف ، والى جانب ذلك فهو يرى أن الأهمية العملية لنظرية القومية بمدلولها السابق قد تناقصت وذلك باقلاع بعض دعاة الوطنية عن رغبتهم فى أن يفرضوا المثال القومى الغالب على غيرهم ، كما هى الحال عند الديمقراطيين الاشتراكيين من الروسيين فى ألمانيا الذين يزيد اعجابهم برعاياهم من البولنديين أو البافاريين أو الدنماركيين كلما تمسكوا بخصائصهم القومية الخاصة ، ولقد حدث تغير مشابه فى الشعور القومى عند الانجليز ، اذ أن الأحزاب الانجليزية قد عدلت فى الباطن أو العلن عن الرغبة فى فرض الطابع الانجليزى على ايرلندا وويلز وجعلت ذلك عنصراً من عناصر سياستها .

ولكن هذه الاعتبارات لم تكف فى رأى جراهام ولاس للقضاء على مذهب القومية الذى تأصل فى الحياة الأوروبية أثناء القرن التاسع عشر وانتشر بين دول أوروبا القديمة والحديثة على السواء ، وانما أخذ يتشكل ليقابل بجهود فكرية اضافية المشاكل التى نشأت عن التوسع الاستعمارى الأوروبى فى بلاد شعوبها ذات الوان غير اللون الأبيض . ويلاحظ ولاس ذلك الجهد فى محاولة التوفيق بين أفكار القومية والأفكار الامبراطورية بين رجال السياسة من الانجليز ، فليس من الممكن تطبيق المبدأ القائل بأن مساحة الدولة ينبغى أن تقوم على تجانس المثال القومى سواء كان ذلك بأسلوب طبيعى أو صناعى فى ميدان امبراطورية واسعة الأطراف مثل

الامبراطورية البريطانية ، باتباع نظرية مثل نظرية ماتزيني أو نظرية بسمارك في الدولة القومية الحديثة . ومع ذلك نرى أن بعض الاستعماريين من الانجليز يحاول تحقيق ذلك ، اذ كانوا يعتقدون أن هنالك " دماً " أو " عنصراً جزيرياً " يشتمل على الناطقين باللغة الانجليزية في المملكة المتحدة والمستعمرات أيضاً من أصحاب اللون الأبيض ، وأن غيرهم من سكان الامبراطورية هم " عبء الرجل الأبيض " ومادته التي يمارس فيها فضائله . وعند ما كانوا يواجهون بالحقيقة القائمة من أن أصحاب اللون الأبيض من سكان الامبراطورية البريطانية لا ينتمون الى جنس متشابه واحد ، كان المثاليون منهم يذهبون الى أنه من المستطاع تحقيق التشابه بينهم عن طريق الدعاية الثقافية ونظم التوحيد السياسية بأن يوضع الشعر الاستعماري الحماسي ويدعى الى انعقاد مجلس الامبراطورية ، أما الواقعيون منهم من أتباع بسمارك فكانوا يذهبون الى تحقيق ذلك عن طريق " الدم والحديد " ويعد اللورد ملنر ممثلا للفريق الواقعي من المستعمرين اذ كان يذهب الى فرض الطابع الانجليزي على مستعمرات جنوب أفريقية بالقوة ويعارض لذلك في عقد صلح مع البوير يتنافى مع تحقيق هذه النتيجة النهائية .

ولكن هذه النظرة القومية الخالصة الى بناء الامبراطورية البريطانية لم تقف أمام الزمن ، وسرعان ما تغير أساسها النفسي ، فأصبح أغلب الاستعماريين البريطانيين يؤمنون بأن المبدأ الملائم لهذا البنيان المركب من عناصر مختلفة هو " الوعي بالتنوع القومي " وليس " التجانس القومي " . غير أنهم قيدوا ذلك المبدأ المستنير بذهابهم الى أن الاحساس بتنوع العنصر ينبغي أن يحاط بسياج الامبراطورية الذي لا يتعداه الى المشاركة في الشعور مع الشعوب الأوروبية التي تنحدر منها بعض المستعمرات البريطانية البيضاء ، فلا يحق للكندي الفرنسي أن يتعاطف مع فرنسا ولا للافريقي من البوير أن يتعاطف مع هولندا ، تقييداً منهم للنزعات العالمية وابقاء على النزعات القومية ، وهم في حرصهم على السماح للعناصر البيضاء أن تستمتع بعاطفة الوطنية داخل اطار من العاطفة الامبراطورية يغفلون انكار الشعوب البيضاء

لوضعهم فى النظام الامبراطورى المفترض وطموحهم الى أن تشملهم عاطفة وطنية من طبيعة العاطفة التى يستأثر بها سادتهم من الشعب الاستعمارى وانصاره ، ترتفع بهم عن المركز الذى ارتضاه لهم أولئك السادة من أن يكونوا عبئاً للرجل الأبيض يباشر فضائله المصطنعة المنافقة فى حمله وتوجيهه .

ويقدم الاستعماريون من الانجليز سبباً عملياً لمحاولتهم خلق عاطفة امبراطورية بين البيض من سكان المستعمرات وفرض الطاعة العمياء على غير البيض منهم ، تتضاءل أمامه الأسباب الميتافيزيقية والاخلاقية لتبرير السياسة الامبراطورية . فهم يقاومون النزعة العالمية لأنها خطرة على الامبراطورية اذ تجعل البريطانى يعطف على مصلحة خصمه قدر عطفه على مصلحة زميله فى الوطن ، فتقتل بذلك فيه الميل الى محاربة الأعداء والمنافسين . أما العاطفة الاستعمارية اذا ما قوبلت بالعاطفة العالمية تعتبر قوة ذات قيمة حربية . فالامبراطورية البريطانية تتوقع حرباً مع الامبراطورية الالمانية أو الامبراطورية الروسية فى السباق الأوروبى الاستعمارى ، ومن ثم فالعاطفة الاستعمارية التى تتكون من تعود سكان الامبراطورية على أن يعدوا أنفسهم عنصراً سيداً يتألف من أمة متجانسة وارستقراطية طبيعية ، سرعان ما تخلق من الامبراطورية البريطانية بعد المشاركة فى تجارب الحرب والانتصار بضرباتها مزاجاً امبراطورياً أشبه بالمزاج النورى الذى كان بسمارك يتوخى خلقه من الذاتية أو الأنانية السياسية . ولن يسع الامبراطورية البريطانية وسواها من الامبراطوريات الأوروبية بعد معارك يتوالى فيها الانتصار والانهزام الا أن تلجأ الى استخدام جيوش غير أوروبية من جيوش المستعمرات فى حرب أوروبى لأوروبى . ولذا ينصح انساة الانجليز باكتشاف تلك الأجناس وتدريبها على القتال خاصة من بين الأجناس التى تحاربها من حارب الانجليز وتعادى من عاداهم مثل " الجوركاس " " والسودانيين " دون أن يطالبوا بحقوق سياسية . ومن ثم ففى ضوء هذه النظرة ، يتحتم على البريطانيين كما تحتم على بسمارك من قبل أن يتعلموا

العالمية من جذورها لأنها تهدد الامبراطورية بالثور والدمار ، وأن يزكوا العاطفة الاستعمارية ما وسعهم تزكيتها على أسس منبعثة عن القومية وناشرة لتراثها .

ولقد أعطت هذه الحجج التي يسوقها دعاة الاستعمار لتأييد النزعات المقاتلة عند الانسان الفرصة لجراهام ولاس أن يقدم نقده اللاذع لمثل هذا النحو من التفكير السياسي وأن يقترح التعديل الواجب له مستنداً لمنهجه النفسي في معالجة شئون السياسة القومية والعالمية . فهو يذهب الى أن اقامة العلاقات الدولية على أسس من التنافس الاستعماري واتخاذ الحرب وسيلة فعالة لإقرار نتائج هذا التنافس لن يؤدي في النهاية الا الى الفناء الدوري للامبراطوريات المتحاربة ؛ والى نقص سكان العالم ، واضطرارهم آخر الأمر أن يدرسوا مشكلات العنصر ، والاستغلال المنظم للكرة الأرضية من وجهة نظر الانسانية وحدها . ومن ثم فيتقدم جراهام ولاس بالسؤال الآتي الحافل بالمغزى العميق وهو " هل اقترحنا أن نبدأ من الآن تلك الدراسة قبل أن تخطو الصراع الامبراطوري خطوة أخرى اقتراح خلو من الطابع العملي؟ "(١) ويجيب على ذلك السؤال بتأكيده أن دراسة السياسة الدولية على أسس انسانية أشد الأمور ضرورة لعالم يتهدده التمزق والدمار ، فقديماً منذ ألف وخمسمائة عام نشب الصراع الديني وكان كل فريق يعتقد أنه لا عيش له الا اذا أبيد خصمه ، ولكن الزمن قد أظهر من الممكن بعد اراقة الدم وجلب الألم أن كلا الفريقين من أصحاب المذاهب الدينية المختلفة يستطيعان التعايش السلمي دون أن يستأصل مذهب المذهب المعارض . وشأن المتصارعين في ميدان السياسة العالمية شأن أولئك الذين تصارعوا في ميدان العقائد الدينية ؛ ينبغي أن يطهروا عقولهم من المسلك الذهني الذي لا يستطيع الا أن يتصور التقابل بين " نحن " و " هم " فاما أن نبقى نحن أو يبقوا هم ، كما ينبغي أن يتحرروا من " ذاتيات العقل " التي يخلقونها بأنفسهم ويحبسون عواطفهم داخلها .

(١) Ibid P. 284

والطريق المجدى لبلوغ حالة من الاتزان والحكمة فى تقدير الشئون العالمية من وجهة نظر الانسانية لا القومية أو الامبراطورية ، يقوم على التغيير الجوهرى لمنهج التفكير السياسى . فعلى البشر أن يتركوا جانباً النزوع الى تقسيم المجرى اللانهائى لأفكارنا واحساساتنا الى طبقات وأنواع متجانسة وذلك أسوة بما فعله الباحثون فى العلوم الاجتماعية فى الوقت الحاضر . فالخيال العلمى قد تعلم كيف يعالج حقائق الطبيعة المتنوعة دون نظر اليها كمجموعات منفصلة تتألف كل واحدة منها من أفراد متشابهين يجمعهم مثال واحد ؛ كما أن الفنان الحديث قد تعلم كيف يستبدل المنحنيات والمسطحات الدائمة التنوع بالخطوط المستقيمة والبسيطة عند الرجل البدائى . وفى ضوء هذا المنهج الفكرى الذى يعترف بالتنوع ، يستطاع التغلب على التعصب لأبناء الأمة الواحدة والامبراطورية الواحدة . وتتجه الأفكار نحو أبناء البشر جميعاً .

واذا ما بلغ جراهام ولاس هذا الحد من العلاج لمشكلة العلاقة بين الدول وبين الأجناس المختلفة ، تساءل عما اذا كان ذلك ممكنا بأن يفكر كل فرد سواء من أفراد البشرية المتنوعين على هذا النحو محتفظاً ما اعتبره ماتزينى أمراً مستحيلا وبأن يتبع ذلك التسامح فى التفكير بالقدرة على أن يشمل قلبه الألف والخمسمائة مليون نفس فى العالم قدرة ذهنه على شمولهم ، وبالايجاز هل يستطيع كل فرد أن يفكر أولا فيمن عداه من البشر وأن يحبهم ثانياً كأفراد متنوعين متميزين .

واجابة على هذين السؤالين ، يرى جراهام ولاس أن نشر داروين لكتابه " أصل الأنواع " فى سنة ١٨٥٩ قد قدم الاجابة على السؤال الأول. فمنذ ذلك الوقت أصبح من الممكن أن نتمثل العنصر الانسانى أمام خيالنا لا كفوضى من الأفراد المتنوعين تنوعاً تحكمياً أو كرصف من الأمم المتجانسة ولكن كجماعة بيولوجية ، لا يختلف كل فرد فيها عن الآخر بطريقة تحكمية وانما وفق عملية التطور العضوى التى تسير على قواعد مفهومة ، ولقد كان المرجو أن يؤدى هذا الادراك لحقيقة تنوع البشر وفق التطور الى الاجابة على السؤال الثانى وذلك لأن ما يتمثل للخيال يمكن أن يتمثل أيضاً للعواطف ،

ومن ثم تذوب انانيات الأمم والامبراطوريات المتحاربة أمام حبنا للجمهور المتنوع تنوعاً لا حد له وهو يعمل جاهداً فى ألم واضطراب رجاء الوصول الى علاقة أكثر انسجاماً مع العالم . ولكن ذلك لم يتحقق . اذ بدا أن اكتشاف التطور العضوى فى القرن التاسع عشر قد ساعد على اثبات أن ذلك الحب لأفراد الانسانية غير ممكن ، بدلا من تشجيعه له . وذلك لأنه ظهر لهم أن التقدم كان دائماً وليد الصراع الذى لا رحمة فيه من أجل الحياة وأن الشفقة والحب سيعوقان ذلك التقدم وسيفضيان بالنوع الانسانى الى التأخر .

وان مثل هذا التفكير كان فى رأى جراهام ولاس مأساة عقلية من مآسى القرن التاسع عشر . فان التصور الصارم للصراع الداخلى المحتوم الذى لا نهاية له بين العناصر والأجناس قد ألقى الرعب ونشر التشاؤم فى نفوس الجيل الذى أعقب نشر كتاب " أصل الأنواع " مثلما فعل من قبله بحث مالتس عن السكان بين الاقتصاديين . فالأجيال التى عاشت قبل داروين كانت تعزى نفسها بالمذهب الانسانى الذى كان يرى أتباعه أن الناس جميعاً أخوة مهما تعددت أجناسهم وعناصرهم وأن مصيرهم الى الاتفاق والتشابه من أثر التعليم فى كل شئ الا اللون . ولكن داروين قد أبان أن مشكلة اختلاف الأجناس لا يمكن معالجتها بهذا اليسر مهما خضع الناس لتأثير التعليم المشترك . لأن الأنواع العنصرية قد وجدت منذ ملايين السنين وانها تنحو نحو الاختلاف لا التماثل والاندماج .

ولقد صادف أن المشكلة العملية للعلاقات بين الأجناس والعناصر قد اتخذت كذلك طابعاً صارماً متشائماً تجاوب منذ القرن التاسع عشر مع نظرية داروين . اذ لاحظ المستعمرون الأوروبيون أن الشعوب الوطنية الأصلية فى افريقيا واستراليا وأمريكا تأخذ فى الانقراض أمام تقدم الاستعمار وغزو الشعوب الأوروبية القوية ، وبدا لهم أن الاستعمار يتضمن النتيجة المحتومة من فناء الضعيف وبقاء القوى ، خاصة وأن داروين قد أعطاهم تبريراً شبه علمى لما ينطوى عليه نشاطهم الاستعمارى من أعمال تجافى مبادئ الانسانية الحقة ، فاطمأنوا لما يفعلون ، ونسوا أن التجارة التى جلبها الرجل الأبيض

الى الشعوب الأصلية الوطنية قد جلبت معها المرض ، وأن المرض هو الذى قضى على العناصر الضعيفة فى هذه الشعوب . أما عناصرها القوية فقد قاومت العدوى وأخذت تتعش ، وليس أمام الرجل الأبيض الآن اذا أراد فناء بعض الأجناس الا أن يقوم بذلك عن قصد وتدبير ، ولكن القضاء على الأمم الضعيفة قضاء مدبراً مرسوماً يقضى فى الوقت نفسه على وحدة المشاعر والأهداف بين القتلة والمقتولين . ويتناقض مع الأخلاق المسيحية الرسمية التى تدعى أن نفوس البشر جميعاً متساوية سواء كانوا أوروبيين أو غير أوروبيين . وهنا يعلن جراهام ولاس فشل المسيحية وهى دين المستعمرين الأوروبيين فى أن تنتج حتى حلا عملياً معقولا . ويقرر أن المسيحيين قد كانوا أثناء القرن التاسع عشر أكثر قسوة من المسلمين وان كان المسيحيون قد حرصوا على أن يخفوا قسوتهم تحت ستار من النفاق المقصود أو غير المقصود .

ولكن جراهام ولاس يستطرد فى تعليقه على تطبيق مذهب داروين فى السياسة فيقول إن خطره لم يعد قاصراً على محاولة الأمم الغربية المستعمرة أن تستأصل الشعوب الوطنية التى تحتل بلادها ، بل إنه يمتد الى الجانب الآخر من الصورة ، وذلك لأنه أصبح من الممكن أن تستخدم الأمم الأوروبية فكرة الصراع من أجل الحياة دليلا على أن النزاع القائم بينها فى الجيل الأخير للسيطرة على طرق التجارة فى العالم قد أصبح "ضرورة علمية وواجباً اخلاقياً" ويذكر جراهام ولاس شاهدا على ذلك فى انجلترا آراء "اللورد امبتهل Lord Amphill" الذى يرى أن التقدم البشرى يستدعى أن يذبح نصف البشر النصف الآخر ، وفى ألمانيا آراء "الامير بيلو" (Prince Bülow) الذى يبدو أنه قد جمع بين تعاليم بسمارك وبين تصوره لما قد تكون عليه تعاليم داروين حين أعلن فى تبريره السياسة الألمانية نحو بولندا أن قواعد الخلق الشخصى لا تنطبق على السلوك القومى ، ولكنه يفند هذا الفهم للصراع الدولى الى أن الاعتقاد بأن الفوائد البيولوجية التى تنجم عن "الصراع من أجل الحياة" بين الافراد هى نفسها الفوائد المنتظرة من الصراع بين الامبراطوريات

أمر غير عنصي مطلقاً . لأن الحرب ان قام بها أوربيون فقط أو ان أشركوا معهم غيرهم من حلفائهم وأهل المستعمرات ، ستنتهي بابادة عدد عديد من الصفوة سواء كانوا من الجنس الأوروبي الشمالي الذي يدعي الورد امتثل أنه أرقى الأجناس أو كانوا من الأجناس الأخرى ، وفناء مثل هذه الصفوة من البشر سواء انتموا الى " الأعلى " أو " الأدنى " من الأجناس لا يعد تقدماً بيولوجياً على أية حال وانما هو عمل من أعمال التأخر البشري البيولوجي .

واذ ينكر جراهام ولاس حجة الذين يذهبون الى أن الصراع بين الامبراطوريات يولد مزايا تطورية في صالح العناصر والأجناس ، فهو ينكر كذلك حجة الذين يدعون أن ذلك الصراع انما ينتج لنا بقاء الأمثل الصالحة في السياسة والثقافة ، ويفترض هؤلاء ان أنجح وسيلة لنشر الثقافة هي وسيلة الاحتلال العسكري . ولكن جراهام ولاس يفند تلك الحجة من تجارب التاريخ القديم والمعاصر ، فهو يذكر لنا أن الثقافة اليونانية قد انتشرت انتشاراً سريعاً بعد سقوط الامبراطورية اليونانية . وأن اليابان في العصر الحاضر قد أخذت الثقافة الغربية باستعداد أكثر كدولة مستقلة مما لو كانت دولة تابعة لروسيا أو فرنسا ، وأنه من المرجح أن الهند ربما تكون أميل الى التعلم من اليابان عن التعلم من انجلترا .

ويرى جراهام ولاس أن مثل هذا التمجيد للصراع بين الامبراطوريات ما هو الا اتجاه من اتجاهات الحس وعادة من عادات الشعور . فانصار داروين الأوائل آمنوا بأن تطور الانسان من الحالة السابقة للانسانية الى حالة الانسانية جاء نتيجة لاستسلامه لغريزة الصراع[1] . وهذا الخط من الاعتقاد يقوم على رفض الحكمة الاخلاقية القديمة من أنه يجب على الناس أن يضبطوا بالتفكير دوافعهم العنيفة وكأن الغريزة العمياء هي خير دليل وهاد سواء السبيل ، وأن الأمم التي تسير وراء غرائزها في معاملتها لجاراتها . انما تنهج

(١) أنظر Walter Bagehot - Physics and Politics

الصراط المستقيم . ويرى جراهام ولاس الا سبيل إلى القضاء على تعود العقل هذه النظرة الى الأمور الا اذا احللنا محلها " تصوراً لعلاقة الانسان بالعالم يخلق قوة عاطفية واعتقاداً عقلياً كذلك " .

وليس هذا العلاج النفسي لهذه المشكلة النفسية ببعيد تحقيقه ، فالتغير الذى طرأ على تصورنا للصراع من أجل الحياة بين الأفراد يدل على أنه بشيء من الصدفة السماوية قد يحدث تغيير مماثل فى " تصورنا للصراع بين الشعوب " فعلماء التطور فى العصر الحاضر يذهبون الى أن تحسين الوراثة فى أى مجتمع لا يأتى عن طريق الصراع الفردى وانما عن طريق تشجيع الغرائز الاجتماعية العليا بهدى من علم الانتخاب الوراثى . وقد ظهر الأثر العاطفى لهذا التصور الجديد باختفاء الفردية القاسية غير الارادية من السياسة الصناعية بعد أن كانت واضحة فى انجلترا أثناء القرن التاسع عشر وعلى هذا المنوال قد يدل علم الانتخاب الوراثى الدولى على أن التقدم فى التطور البشرى لا يتطلب ابادة الأجناس المختلفة بعضها البعض وانما يتحقق بأن يقوم كل جنس بنفسه على تحسين نوعه . وان كانت مثل هذه الفكرة لا تعجب الداعين الى الصراع بين الأمم والأجناس ممن يرون أن العالم يتدرج فى نظامه العنصرى من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، ومن الأوروبيين الشماليين الى أسفل ويؤمنون بوجوب قيام عالم أبيض فى النهاية ايمان الساسة فى مدنى بضرورة قيام " استراليا بيضاء " ، الا أن السنين الأخيرة علمت سكان أوروبا شيئاً من التواضع للاسباب العقلية الواسعة الانتشار وللحقائق المرة التى نشأت عن الحرب الروسية — اليابانية وعن تسليح الصين . اذ لم يعد تقسيم الشرق الأقصى الى دوائر للنفوذ الغربى أمراً مستساغاً بل أصبح أضحوكة غبية . ويضيف جراهام ولاس الى ذلك قوله أن الغربيين يوشكون على الاعتقاد بأن العالم يصبح أكثر غنى مما هو عليه الآن اذا ما قامت حضارات أخرى وأنواع عنصرية أخرى الى جانب الحضارات والعناصر الغربية . وكما أن المسيحيين قد تعلموا بدراسة الوثائق المسيحية أن دينهم ما هو الا دين واحد بين أديان العالم ، فهم كذلك يعترفون أنه قد أفاد وربما يفيد من تراث الهنود والفرس فى الفلسفة وأعمال الذهن الدقيقة . وليست هذه البراهين السياسية والدينية

والفكرية وحدها هي التي تبرر تعدد الثقافات والأجناس ، وانما يؤيد هذه الحقيقة أيضاً الاحتكام الى علم الحياة البحت ، فرجال العلم يحذرون أبناء العصر الحاضر من الاعتماد على أسرة واحدة أو نوع واحد في توالد النوع البشري بأجمعه في العالم ، وان كان الأوروبيون الآن ، يعزفون عن التناسل المشترك بين الأجناس والعناصر فانما يفعلون ذلك رغم الأمثلة البارزة للاختلاط التناسلي الناجح بينها في الماضي من ناحية ، وللجهل التام بالظروف التي يتوقف عليها النجاح من ناحية أخرى .

ويختتم جراهام ولاس مناقشته القومية والانسانية بذهابه الى أنه قد أصبح من الممكن اعتماداً على هذه الأسس الفكرية أن يتطلع العالم الى تحقيق مستقبل العنصر البشري عن طريق غير طريق الدم والبغض ، وبالرغم من أنه لا يتوقع أحد أو يتنبأ بقيام اتحاد للكرة الأرضية مباشرة ، الا أن الشعور بغرض مشترك عند بني الانسان ، أو حتى الاعتراف بأن هذا الغرض المشترك أمر ممكن ، سوف يغير وجه سياسة العالم في الحال . فالتباغض الذي لا يستند الى العقل بين الأجناس ويشتعل من وقت الى آخر على حدود الامبراطورية سيكون ذا أثر ضئيل في السياسة الدولية حين يقابل بتصور منسق لمستقبل التقدم الانساني . ويعمل على تحقيق هذا الهدف ما يجلبه التلغراف من أنباء عن مختلف أنحاء الأرض حتى أصبح في استطاعتنا أن نرسم لأنفسنا صورة عن هذا العالم الواسع أدق في سماتها وأظهر في حقيقتها من الصورة التي ترتسم في أذهاننا عن البيئة المحلية التي نراقبها في عجلة من القطار أثناء ذهابنا الى عملنا وايابنا منه ، وستوحي هذه الصورة الذهنية بالعاطفة التي تتجاوب معها ، " فقد تعطي لبعضنا الثقة في ذلك الحب الذي رأى دانتي أنه يحرك الشمس والنجوم الأخرى ، وقد توحي لكل منا عطفاً أكثر شفقة على جميع الكائنات المذهولة التي تنقل من جيل الى جيل شعلة الحياة الواعية "[1] .

---

(١) Graham Wallas : Human Nature in Politics P. 296